الغريزة الجنسية في العمران

إن عهدي قريب كان اول ما يتبادر الى الذهن من لفظ الغريزة حينما يرد في بحث او حديث هذه الصفات الحيوانية الدنيا : كالشهوانية والاندفاع المطلق من كل قيد والتنكب عن التفكير وترجيح الحاجات الجسمانية على الحاجات الروحية وما الى هذا مما يكثر الآن في كلام المرشدين . وهذا يشير الى نسق التفكير الذي كان ولا يزال شائعاً قبل ان يدرك تماماً عمق الأثر الذي تتركه الغرائز في حياتنا

وهذه النظرة العدائية الى الغرائز ليست حديثة العهد أو مقتصرة على فئة دون أخرى او اقليم دون اقليم بل هي نظرة عامة شاملة لا تكاد تخطئها في قوم يفكرون في غير حاجات الجسم الأولية . وأقل ما كان يلحق بهذه الغرائز من عيب وأخفُّ ما تحمله من وزر انها محدودة الفعل ضئيلة الأثر في حياتنا . وإذا وجد من يقر لها بشيء ما لا يعترف لها الا بالجانب المظلم من سلسلة الحوادث التي تتعاقب على مسرح الحياة . فالحروب المهلكة والرذائل المميتة والشرور الملازمة والحيوانية البشعة — هذه وغيرها من نتاج الغريزة وثمار الشهوة والمعارف الصحيحة والاعمال الفخمة والمآثر الجليلة هبة العقل وحده وثمرته . وهكذا تكون مهمة العقل البناء والترميم ويبقى للغريزة الهدم والتدمير

ذلك هو حظُّ الغرائز من انصاف القدماء وتقديرهم . ومما لا شبهة فيه ان اوفر هذه الغرائز نصيباً من سخرية القدماء وزرايتهم هذه الغريزة الجنسية التي تهيمن الكثير مما في الحياة من جليل خالد ولكننا نأنف ان نقر لها بشيء من ذلك . واللغات القديمة والحديثة طافحة بالاشارات المقتضبة والمستفيضة في التشنيع على هذه الغريزة والنيل منها

ولكن ما عسى ان تذهب الافكار الى خطل هذه الفكرة التي تحاول ان تضع حدّاً فاصلاً بين اعمال العقل وأعمال الغريزة . وأدرك جمهور الفلاسفة والباحثين ان جميع الغرائز على مستوى واحد من حيث النفع العام إذا لم يسأ استعمالها . وأشد ما لاقته هذه الفلسفة القديمة كان على يد فرويد (Freud) وأشياعه المحدثين . وهم اليوم يملأون مشارق الارض ومغاربها ويحتلون مركزاً عالياً من ثقافة هذا العصر وتفكيره

أرانا فرويد ان اكثر ما ندعي اننا نعمله في هدي العقل وارشاده لم يكن ليتم لولا زخم العاطفة ودفع الغريزة — والغريزة الجنسية على الاخص . ومذ قذف فرويد اول قنبلة من قنابله اخذت بطاريات العلم تهاجم تلك الصروح التي بنتها اوهام الماضي حول الغريزة الجنسية مهاجمة لا لين فيها ولا هوادة . ويخيل الينا أنهُ لا يصمد في وجه هذه المعركة العنيفة إلا كل

ذي اساس متين . على أن هذا الجهل والزيغ للذين كانا يلازمان كل حديث أو بحث في موضوع الغريزة الجنسية قد اهابا بالباحثين الى التعمق في النظر والمغالاة في الحكم والتقدير . شأنهم في هذا شأن الجراد الجوع يندفع وراء غريزته فيدركها ويخلفها وراءه لشدة جريه وقوة اندفاعه فتراهم اليوم ينسبون الى هذه الغريزة كل لون من الوان الحضارة بلا استثناء ضاربين صفحاً عن المؤثرات الاخرى — كغريزة حب التسوُّد — مثلاً وهي لا تقلُّ اثراً في توجيه الحضارة عن الغريزة الجنسية . اذاً من الخطإ الفاحش والتحكم المكروه ان يعزى كل اثر من آثار الحضارة وكل لون من الوان العمران الى هذه الغريزة وحدها . ومن الخطإ ايضاً ان يظنَّ ان الغريزة الجنسية كانت تسير دائماً وراء عوامل الحضارة توجهها الى حيث تشاء دون ان يكون لهذه العوامل اي اثر في تلوين هذه الغريزة وتنويع وسائلها وتعديل مجراها

هذه الغريزة في الحيوانات العليا هي وسيلة الحياة وأداة البقاء . هذا يحسب لها ولا يستطيع أن ينكره منكرٌ . فكل كائن من الكائنات الحية من المناكب التي تنتهبها انانيتها بعد الثلاثة الى الرجل الذي ينتصب ما ينتصب ويعاني ما يعاني في توفير القوت لزوجه وبنيه — هؤلاء وغيرهم تسخرهم الحياة في فضاء لانانيتها وتنفيذ ارادتها . حتى الفلاسفة — كما يقول شوبنهور — لا يعدمون نسلاً يخلفونهُ بالرغم عن كل تفكير ومعرفة

ولكن ألم يكن بوسع الحياة أن تخترع اسلوباً غير هذا الأسلوب للبقاء أقل كلفة وأضمن لنجاح من هذه الوسيلة المعقدة ؟ اليس الواقع أن الحياة استمرت ملايين السنين دون ان تتوسل بهذه الغريزة في تنفيذ مآربها ؟ ان الغريزة الجنسية حديثة العهد في تاريخ النشوء . والحياة كائنة قبل الغريزة الجنسية تصل عملها في الأحياء دون انقطاع ، وتكثر النسل لا بطريق التزاوج والاتحاد بين الخلايا الحية بل بطريق الانقسام المستمر . اذاً لم يكن ثمة حاجة الى هذه الغريزة إذا كان الغرض منها البقاء والاستمرار نحسب . واذاً ما قيمة هذه الغريزة وما غرض الطبيعة في تكوينها ؟ قيمتها أنه لما تقررت صفات الانوثة والذكورة في الجنسين — وذلك باتصال عوامل التذكير عن عوامل التأنيث — أصبحت الغريزة الجنسية وسيلة ناجحة في يد الحياة لتقرير الصفات المستحدثة وتثبيتها في النسل الجديد . والانتخاب الطبيعي كان لا يتم ولا ينجح لو لم تكن المواد التي تقدمها الحياة متباينة . وذلك أن الانتخاب الطبيعي يرتكز على أن الجيل الواحد يجيء وله من الصفات المستحدثة ما ليس للجيل السابق . وهذه الصفات كانت لا توجد لو أن الحياة استمرت على أسلوبها القديم في التكاثر والتوالد — أسلوب الانقسام الذاتي المعهود

وغير هذا فان للتباين الجنسي أكبر اثر في إنشاء العائلة وإحكام بنائها . فهذا التجاذب القوي بين الجنسين ، وهو الاصل في بنائها تربيةً احدهما من الآخر ، يرجع إلى استقرار

التباين في كلا الجنسين . فالرجل إذا يشعر أن حياته لا تتم ولا تؤدي غرض الحياة الأسمى على أكمل وجه إلا إذا استقل بامرأة ووطن النفس على السكن إلى جانبها مدة طويلة من الزمن ريثما يشتد ساعد البنين ويقوون على دفع الخاطر ورد المهالك ، لا يجد له مندوحة عن البقاء إلى جانب زوجته يدفع عنها وعن بنيها . وهذا الاستمرار على الولاء للمرأة والقيام على خدمتها مكن الروابط بين الرجل والمرأة مما كان أساساً لنشوء العائلة — نواة الاجتماع . وكثير من الفضائل والعواطف الاجتماعية كالنصفة والغيرة والرحمة وعاطفة الأبوة مردها هذا التباين الجنسي وما يستتبعه من انجذاب وتعاطف . والذي يساعد على بلورة هذه العواطف وتصفيتها ولادة الاطفال ضعافاً لا يكونون نفعاً لأنفسهم . واستمرار هذا الضعف مدة طويلة في صغار الانسي يجعل بقاء الوالدين قريبين منهم أجلاً طويلاً ، امراً محتوماً ، بعكس اصناف الحيوانات الأخرى التي يولد صغارها قادرين على السعي وتحصيل القوت مما يسهل على الوالدين الانفصال عن صغارهم والضرب في مناكب الأرض دون أن يلتفتوا إلى ما خلفوه من نسل

بيد أنا لا نحب أن يذهب بنا التحمس لهذه الفروق الجنسية مذهب القائلين بأن كل فضائلنا ومؤسساتنا الاجتماعية كانت وليدة لهذا الانجذاب المستمر بين الجنسين ، ونهمل الغرائز والدوافع الأخرى وهي لا تقل في فعلها عن الغريزة الجنسية . وفي سلوكنا الجنسي ذاته قد يكون لهذه الغرائز والدوافع الأخرى أثر كبير في توجيه هذه الغريزة . فالشاب الذي يقتحم ما يقتحم من أخطار ويتخطى من صعاب ليفوز برضى فتاته ، قد لا يكون دفع الغريزة الجنسية له أقوى من دفع غريزة حب التسلط والسيادة ، لا سيما إذا كان له مزاحمون اقوياء يجد لذة في تنحيتهم عن الطريق واقناع نفسه انه أهل للجهاد والغلبة . ونعتقد أن دون جوان ولورد بيرون وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم ممن اشتهروا بالتنقل في الحب لم يكن كل الدافع لهم في مغامراتهم الغرامية ارواء الغريزة الجنسية وحدها ، بل يشترك معها في ذلك غريزة حب السيادة والدفاع عن النفس باقناع هذه النفس انها تستطيع ان تعشق وتتغلب إلى هذا الحد الذي يقاس بكثرة المعشوقات . وهذه الفتاة الاميركية التي كانت تستدرج عشاقها إلى مشاطرتها فراشها ثم الوقوف عند ذلك الحد متوسلة اليهم بعواطف النخوة والشرف تمثل لنا هذا الصنف من الفتيات والفتيان الذين يحبون أن يثبتوا لأنفسهم وللناس انهم في هذا الحد من المقدرة على التسلط على عواطف الغير . أما ممارسة الحب لأجل الحب فقد تكون عندهم في الاعتبار الثاني

هذه امور نبهنا للغريزة الجنسية دون أن يداخلنا طيف من الشك في قيمتها وأثرها في احتثاث التطور العضوي والاجتماعي وايصاله هذا الحد من النجاح . ولكن هذا ليس كل ما للغريزة الجنسية من أثر في مظاهر الحياة المختلفة . فالواقع ان هذه الغريزة يمتد تأثيرها الى غير عنصر من عناصر العمران . وتعقب آثار هذه الغريزة في عوامل الحضارة جميعها

ليس من غرضنا الآن ، لأن المجال لا يتسع لمثل هذا البحث المتشعب فنكتفي باظهار الأثر الذي كان لهذه الغريزة في عاملين اثنين من عوامل الحضارة — الدين والفنون على اختلافها

أما الدين فشبعت أفكارهم بالتسلط على الغريزة الجنسية وتحميلها كل الخطيآت الاجتماعية والدينية فيشق عليهم أن يصدقوا أن هناك علاقة بين هذه الغريزة والدين. وحسبهم يعتقدون ان مثل هذا النظر من قبيل الكفر والزندقة . وهم معذورون لأنهُ ، بحسب الظاهر ، ليس ما هو أكثر تضاداً من الدين والمسائل الجنسية . فالاختلاف بين هاتين الناحيتين من نواحي الحياة — عندهم هو كالاختلاف بين الايمان بالله والكفر به . ولكن الواقع انك إذا رجعت إلى الأديان القديمة كديانات الفينيقيين والآراميين والبابليين وإلى الديانات الحديثة عند اكثر الشعوب المتوحشة وجدت فكرة الجنس تحتل من هذه الديانات محلاً رفيعاً . فيها كل القدماء وشعائرهم الدينية ورسومهم على جدران المعابد وأفانيهم وما كانوا يمارسونهُ في معابدهم تدلنا دلالة واضحة على أن هذا العداء بين الغريزة الجنسية والدين هو عداء حديث طارىء بدأ مع المسيحية وبلغ غايتهُ في قرونها الأولى

ولا يعد هذا التمازج بين عناصر الغريزة الجنسية والعناصر الدينية دليلاً على التقهقر بالنسبة إلى حضارة اولئك الأقوام وطراز تفكيرهم . ذلك لأن غرض الدين عند القدماء لم يكن — في معظم الاوقات — تفسير الحياة وتعيين هدفها وترسيم الطريق التي يسار فيها للوصول إلى هذا الهدف ، انما كان غرضُ الدين حفظ هذه الحياة والابقاء عليها . ومن هنا التقى الدين والغريزة الجنسية عند هذا الغرض الواحد . ومعظم الشعوب المتوحشة يشيع بينها الاعتقاد بأن الاخصاب في الأرض يجب أن يصحبهُ اخصاب بالنسل . ومن هنا ما يمارسهُ أكثرهم من شعائر ومراسيم دينية عند زراعة الحبوب والاثمار ووقت الحصاد والقطاف

على انهُ وان يكن للغريزة الجنسية هذا الاثر في الدين ، فان مظاهرها المختلفة لم تنج من تأثير الدين فيها ، لاسيما في القرون الاخيرة من الحضارة . واعظم الحركات الاجتماعية التي تركت أثرها الخالد في مسائل الجنس هي الديانة المسيحية . وذلك الصدام الذي استمرَّ حوالي خمسة قرون بين المسيحية الاولى والوثنية يمثل لنا حقبة خطيرة في تاريخ العمران . وكثير من مثلنا العليا الراهنة في مسائل الجنس يُعدُّ بحق ثمرة من ثمار هذا النضال المستمرّ

***

وفي الناحية الاقتصادية يرجع اثر الغريزة الجنسية الى الوقت الذي اصبحت المرأة فيه تباع وتشترى بعد ان كانت تؤخذ عنوة وغصباً. في هذا اصبح لا مندوحة للرجل عن توفير الثروة والاحتيال لها بكل الوسائل ليتسنى له ان يبتاع المرأة التي يشتهيها واصبح لزاماً عليه ان يخترع لها ويسخر لها جميع الاشياء التي كان اختراعها وتسخيرها بحوزته . وهكذا ارتقى ذوقهُ الفني

وتنوّع واصبحت مقدرتها على الانتاج تتشعّب — الى حدٍّ بعيد — مع رغائب المرأة النفسية والمادية الى هذا الحد كان تأثير المرأة ملموساً في توجيه سير الانتاج الاقتصادي ؛ ولكن ما عدا ان عكس الامر وأخذ دفع العوامل الاقتصادية يسيّر المرأة طرقاً شتى تتراوح بين السلامة والخطر . وقصة هذا النضال بين هاتين القوتين : قوة الانوثة المرنة وقوة الاقتصاد التي لا ترحم من اشوق القصص واكثرها امتاعاً . واليكها باختصار

اما المكان فهو على الاجمال عالمنا كله وبالحصر اوربا . والزمان هو اواخر القرون الوسطى وهو الزمن الذي اخذت فيه هذه المعركة الصامتة شكلاً جديداً . فعقب انصرام عهد الاقطاع وانتقال مركز الثقل الاقتصادي من الطبقات الارستقراطية الى الطبقات الاخرى التي شرعت ترقى سلم الارتقاء الاقتصادي بجهودها المتواصلة وتضحياتها العديدة آخى القانون الاخلاقي قانونين : القانون الذي يُرضي ذمرة الارستقراطيين ورغائبهم الوثنية مطلية بطلاء المسيحية والقانون الذي يُرضي هذه الطبقة الناشئة — طبقة المتموّلين — ويساعدها على الاحتفاظ بثروتها المكتسبة بطريق الجد والاقتصاد وحرمان النفس شتى اللذائذ . فالزواج بامرأة واحدة وهو ما كان كخرافة بين الطبقات الارستقراطية ، اصبح عند هذه الطبقة المتموّلة حقيقة راهنة وقانوناً نافذاً يأخذون انفسهم به اخذاً شديداً . والاسراف عند اولئك حلّ محلّه الاقتصاد والتوفير عند هؤلاء

وقد قوى هذا القانون الاخير واشتد ساعده بجماعة المطهرين الذين قصروا كل جهودهم على محاربة كل نزعة من نزعات الاسراف والتبذير متوسلين الى ذلك بالدين علماً منهم بما للدين من اثر في انجاح الدعايات الاجتماعية على انواعها . فالحق ان حركة المطهرين هي حركة اقتصادية مطلية بطلاء الدين . وقد تأثرت فنون المطهرين وآدابهم تأثراً قوياً بهذه الفلسفة الاخلاقية التي سنّوها لانفسهم . فشعرهم ونثرهم كانا مجردين من الاشارات الى المسائل الجنسية . وكنائسهم كانت خلواً من الرسوم والصور ومراسمهم التمثيلية كانت والعدم سواء . وموسيقاهم حُصرت ضمن حدود ضيقة جداً لا تتعدى المواضيع الدينية . ومن هنا معنى عبارة تولستوي اذ يقول : أن الفن الخالص التي كان عَلَمَ المتموّلين في هذا العصر

لنا مما تقدم ان هذا التباين التاريخي في البعد عن الرغائب الجنسية بين الطبقة الارستقراطية وطبقة المتمولين كان ناجماً من التباين الاقتصادي بين هاتين الطبقتين فطبقة الارستقراطية كان لها من احوالها المتضعضعة وخروج الامر من يدها ما يشجعها على الانغماس في الملذات والاسترسال الى الشهوات . وحالة المتمولين وانتقالهم النجائي من الادقاع الى الثراء صيرهم شديدي الحرص على هذا السلاح الجديد الذي انتهى اليهم والذي كانوا يدركون

جيداً فيسته وخطره فعملوا على كبت كل ما من شأنه ان يضعف هذا السلاح من شهوات النفس وعلى رأسها الشهوة الجنسية . ولنستطيع ان نكرر — مع شيء كثير من التأكيد — ان الفلسفة التطهيرية نشأت لتبرير الحالة الاقتصادية التي انتهى اليها المطهرون ولندفع عن هذه الثروة التي جمعوها بتضحية جانب عظيم من رغباتهم الجنسية ومن هنا ما كان يعتقده سواد المطهرين من ان مهنة جمع الدراهم هي مهنة مقدسة يهدي اليها من هداه الله

وتطورت العوامل الاقتصادية وتطورت معها مسائل الجنس علواً وسفلاً الى ان كانت الثورة الاقتصادية وكان من نتائجها في العصر الأخير استقلال المرأة هذا الاستقلال الاقتصادي الذي اعطى المرأة أكثر مما كانت تحلم به من حرية شخصية ، لا سيما ما يمتُّ منها الى المسائل الجنسية . وقد اصبح للمرأة في اميركا واكثر بلدان اوروبا من الحرية في الاختيار والتنويع ما للرجل . وأثر هذا في نظام العائلة والزواج وفي قواعد الاخلاق قد اخذ يظهر ظهوراً جلياً في اميركا وروسيا وفرنسا وغيرها . والذي يبدو لنا ان العالم الصناعي كله صائر الى هذا عاجلاً او آجلاً . اما الفن فلا نرغب ان نعزوه بمذاهبه الى الغريزة الجنسية كما يريد اصحاب التحليل النفسي اذ يقولون بكل صفة من التأكيد والجزم : ان كل أثر من آثار الفنون والآداب من نحت وتصوير وموسيقى وشعر ونثر أثر من آثار كبت الغريزة الجنسية والتسامي بقوتها الكامنة في ناحية التوليد الفني . واذا صح هذا الزعم فمعناه ان ليس ثمة من دافع أو حافز يدفع المرء ويحفزه الا دافع الجنس . وحسبنا ان ننظر في آداب الامم القديمة والحديثة لنرى ان عامل الجنس هو عامل واحد من شتى العوامل التي كانت تحفز الانسان ولا تزال تحفزه الى الانتاج الفني والادبي . فالغضب والخوف وحب الاستطلاع وحب السيادة لها من حياتنا الحسية والعقلية في بعض اطوار الحياة ما للغريزة الجنسية . على ان هذا لا يمنعنا من القول بان الغريزة الجنسية هي اقوى البواعث — في الاجمال — على التوليد الفني والادبي لا سيما في اطوار الدعة والاطمئنان حيث يتسنى للناس ان يفكروا في غير حاجات الجسم الاولية من مشرب ومطعم وملبس وقد يقال : ان تأثير هذه الغريزة مقصور على الامم المتمدنة حيث يشتد الكبت وتشيع المحرمات الجنسية شيوعاً كبيراً وحيث يتسامى الشاب بهذه الغريزة عن مستواها الحيواني تصبح دافعاً قوياً للابداع الفني . ويصدق هذا القول لو خلت هذه الشعوب من المحرمات الجنسية . ولكن الواقع ان أكثر هذه الشعوب لها من المحرمات مثل ما للأقوام المتحضرة . ولهذا كان لكبت هذه الغريزة عين الأثر الذي لهذا الكبت بين الأمم المتحضرة

(البقية في الاخبار العلمية)

أديب عباسي

شرق الاردن